

الوصف في شعر المتنبي

بقلم المتنبي قاسم

المدرس بمدرسة محمد علي الملكية الاميرية للبنات

- ١ -

الوصف في الشعر العربي من أهم أغراضه وأجداها على اللغة ، لخصبه وتنوع فنونه ؛ فإنه كالرسم والتصوير ، يتناول من الكون نواحي شتى : فيمثل المناظر الطبيعية ، من السماء بلياليها ونهارها ، ونجومها وشمسها وقمرها ، وغيمها وصحوها ؛ ومن الأرض بما عليها من بحار وأنهار ، وبحيرات وغدران ؛ وما فيها من صحارى ذات رمال ، ووحش وحيوان ، ومن بساتين وحقول ، تهتز وتموج بالنجم والشجر ، والزهر والثمر ؛ وينتظم ما يصطنعه الناس على هذه الأرض ، من آثار باقية ، وقصور رفيعة ، وقلاع حصينة ؛ بل إنه ليسجل لنا ما لا يطول أمده : من المجالس وما تزدان به ، وما يجرى فيها من حركات ، وما يسمع من أحاديثها وأغانيتها ؛ ويجلو علينا ما فاتتنا رؤيته وشهوده ، من الحرب والطرده والصيد ؛ بل إنه لينقل إلينا شعور النفوس وإحساسها ، ويعرض على أبصارنا وأسماعنا خلجات القلوب ووجدانها ، وصفات الناس وسجاياها .

فهو غرض واسع النواحي ، بعيد ما بين الأطراف ؛ وقلما يلم الشاعر بأطرافه جميعا ، فضلا عن الإجابة فيها ؛ ولكل من الشعراء الوصافين فن أو فنون من الوصف ، تستأثر بنفسه ، وتظهر فيها براعته ؛ وذلك بحسب مناظر البيئة التي تغلب فيها ، والظروف التي اكتنفته واتصلت بإحساسه ، وتغلغل آثارها في مجرى حياته ، فكان يمثلها بصره وعقله ، وينبض بها قلبه ، ويفيض لتذكروها شعوره ؛ فلا ينتظر من الشاعر أن يجيد إلا في الناحية التي هيأته لها

حياته ، فجعلتها مناط شاعريته ، ومهبط وحيه ، ومصدر إحساسه ، ومثار آماله وآلامه .

وكذلك الناس في حياتهم ؛ فقد زرت (المعرض) ومعى شيخ من كبار الزراع ، له مع الزراعة صداقة خمسين سنة وخبرتها ، وكان يصحبنا شاب خلى من تبعات الحياة ، فهو لا يزال سادرا في اللهو واللعب ، مقبلا على هواه . . . فلما أجزنا الباب ، وتوسطنا الساحة التي تفضى إلى أقسام المعرض ، وقفنا نجيل الرأي فيما يحسن البدء بزيارته : فاقترحت أن نعجل بمعرض وزارة المعارف ، ورغب الشيخ الفلاح في المعروضات الزراعية ؛ أما الشاب فلم يؤثر شيئا على آخر ، فإكان همه إلا الإسراع ، لتبقى له فسحة من الزمن في (الملاهي) .

وهكذا حال الشعراء الوصافين ؛ فمنهم من يسرف في وصف الطبيعة الجميلة ؛ لغرامه بها ، وتقليبه بين مناظرها . وقلة ما يصرفه عن اجتلاء محاسنها . . . ومن يصف المفاوز والأبل وحيوان البر ؛ لكثرة ما تتقاذفه الفياثى ، وطول ما عاش بين رمال البوادي ، فهي دنياء ومجلى هواه . . . ومن يصف البحر وما فيه ؛ لكثرة ما ركب وعانى من أحواله ، وتكرار ما شاهد فكنه وجزره وخلجانه . . . إلى غير ذلك مما لا سبيل إلى استيفائه الآن .

— ٢ —

ولقد كان شاعرنا أبو الطيب رجلا بعيد الهم ، طموحا إلى المجد ، يشعر بأن له حقا عند الأيام تمطله به ، فهو يسعى جهده لإدراكه ؛ وقد نشأ منذ نعومة أظفاره على الهممة ، كبير النفس ، بعيد مرمى الآماني ، مشغولا بتحقيق مطالبه ، وإدراك مآربه ؛ وقد رأى أن الوسيلة إلى ذلك إنما هي القوة والحرب ؛ فلن ينال ما يبغي من هذه الحياة ، إلا بالقنا المشتجرة ، والسيوف المرفهة ، والخيول السوابق ، والجنود الأقوياء ؛ وقد شهد الحرب منذ نشأته . ووعت نفسه الشاعرة مناظرها ، وهيئات المحاربين وآلات القتال ؛ واتصل بكثير من القادة في حياته ، وعاشر سيف الدولة ، ولازمه زمنا مديدا ، وحضر وقائعه مع الروم ، ومع الخارجين عليه من الأعراب ؛ وانغمس في تيار الحياة لعهد ، وهي تدور على

قطب الحرب والقتال ؛ فلا غرو بعد ذلك أن يجيد أبو الطيب وصف الجيوش ،
وساحات الوعى ، وآلات القتال من خيل وسيوف ورماح ، ومظاهر الانتصار
والانهزام . . .

وهذه صورة لجيش الحسن بن عبيد الله بن طغج ، قد رسمها المتنبى ، فجلا
أمامك هذا الجيش ، كأنك تسمع جلبته ، ويملك سمعك ضوضاؤه ، وترى كثرتة
تغطى الأرض ، فرماته لا يقلت الطير من نبالهم ، ولا يفوت الوحش المزعج
عن مكانه ساهمهم ، بل لا يلبث كلاهما أن تناله أيديهم وسلاحهم ؛ ثم تقلب
وجهك فى السماء ، فترى النور تزدحم فوقه حائمة محلقة ، فلا تجد الشمس
طريقا إلى الأرض من زحمة القشاعم وتلاصق ريشها ؛ فإذا صادف ضياؤها
فرجة رسم دراهم مستديرة على المغافر ؛ وتشهد لمعان السلاح فى جوانبه يطغى
على البرق فيخفيه ، وتسمع همهمة الفوارس تعلو هزيم الرعد فتغطيه :

وَلَا يَتَلَقَّى الْحَرْبَ إِلَّا بِمُهْجَةٍ	مُعْظَمَةٍ مَذْخُورَةٍ لِلْمُعْظَامِ
وَذَى لَجَبٍ ، لَا ذُو الْجَنَاحِ أَمَامَهُ	بِنَاجٍ ، وَلَا الْوَحْشُ الْمُنَارُ بِسَالِمٍ
تَمُرُّ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَهِيَ ضَعِيفَةٌ	تُطَالِعُهُ مِنْ بَيْنِ رِيَشِ الْقَشَاعِمِ
إِذَا ضَوْؤُهَا لَاقَى مِنَ الطَّيْرِ فُرْجَةً	تَدَوَّرَ فَوْقَ الْبَيْضِ مِثْلَ الدَّرَاهِمِ
وَيَخْفَى عَلَيْكَ الْبَرْقُ وَالرَّعْدُ فَوْقَهُ	مِنْ اللَّمَعِ فِي حَافَاتِهِ وَالْمَاهِمِ

وقد وصف إيقاع سيف الدولة ببنى عقيل ، وقشير ، وبنى العجلان ، وبنى
كلاب ؛ فصور الطراد بين الجيش ، وانهزام التأثيرين من هذه القبائل ، ومثل
شدة اضطرابهم حينما لاذوا بالفرار ، وإرهاق نساءهم المردفات على الخيل ، ووقوع
الأطفال تحت سنا بكها ؛ وهذا كله بتصوير بليغ ، لا تشك إذ تقرؤه أنه يعرض عليك
مناظر واضحة متتابعة على سبيل الخيالة (١) فقال (والضمير لخيل سيف الدولة) :

تَشِيرُ عَلَى سَلْمِيَّةَ مُسَبِّطَرًا تَنَّا كَرُّ تَحْتَهُ لَوْلَا الشَّعَارُ^(١) -
عَجَاجًا تَعْتُرُ الْعِقْبَانُ فِيهِ كَأَنَّ الْجَوَّ وَغَتْ أَوْ خَبَارُ^(٢) !
وَوَظَلَّ الطَّعْنُ فِي الْخَيْلَيْنِ خَلْسًا كَأَنَّ الْمَوْتَ بَيْنَهُمَا اخْتِصَارُ
فَلَزَهُمُ الطَّرَادُ إِلَى قِتَالٍ أَحَدُ سِلَاحِهِمْ فِيهِ الْفِرَارُ^(٣)
مَضَوْا مُتَسَابِقِي الْأَعْضَاءِ فِيهِ لِأَرْؤُسِهِمْ بِأَرْجُلِهِمْ عِشَارُ
يَسْلُومُو بِكُلِّ أَقْبَ نَهْدٍ لِفَارِسِهِ عَلَى الْخَيْلِ الْخِيَارُ^(٤)
وَكُلُّ أَصَمٍّ يَعْسِلُ جَانِبَاهُ عَلَى الْكُعْبَيْنِ مِنْهُ دَمٌ مَمَارُ^(٥)
يُغَادِرُ كُلُّ مُلْتَفِتٍ إِلَيْهِ وَلَبَّتُهُ لِنَعْلَيْهِ وَجَارُ^(٦)

وَجَاءُوا الصَّخْصَحَانَ بِلَا سُرُوجٍ وَقَدْ سَقَطَ الْعِمَامَةُ وَالْخِمَارُ^(٧)
وَأَرْهَقَتِ الْمَذَارِي مُرْدَفَاتٍ وَأَوْطِئَتِ الْأَصْيِيَّةُ الصَّغَارُ

ألا ترى إلى إبراز المعاني ماثلة للأبصار ، آخذة بالآلِباب ؟ إني كلما أنشدت هذا أو مثله من شعر المتنبي ، تذكرت على الفور بيتين للأستاذ الجارم في شعر المرحوم شوقي بك :

- (١) سلبية : مكان - المسبطر : الغبار النائر الممتد - الشعار : علامة تميز الفرسان
- (٢) الوعث : الرمل تغيب فيه القوائم - والخبار : الأرض اللينة .
- (٣) لزهم : ألجأهم .
- (٤) الأقب من الخيل : الضامر - النهْد : العالى المشرف .
- (٥) الأصم من الرماح : الشديد غير الأجوف - يعسل : يضطرب - مَمَار : اسم مفعول من أماره إذا أساله فهو الجارى .
- (٦) الثعلب من قناة الرمح ما يدخل في السنان - الوجار : بيت الضبع .
- (٧) الصخصحان : المكان المستوى من الأرض .

وإن وصف الحرب خلت الحراب تسد من الأرض أقطارها
فتمسك جنبك ذعراً ، تخاف قناها ، وترهب بتارها !

وفي إحدى مدائحه لكافور ، يقص عليه بعض متابعه في أسفاره ، فيقول : إنه كان يكمن النهار ويسرى الليل ، خشية أن يشغله أعداؤه عما هو بسيله ، وكان (في ممكنه) يتخذ أذن حصانه مقياساً للأمن والفرع ، فيجعل بصره معقوداً بهما ؛ فإن الحصان إذا رأى شيئاً نصبهما متشوقاً ، فيعلم الفارس ذلك ؛ وهنا تسنح الفرصة لوصف الحصان ، فيغتنمها الشاعر ، ويوفيه بعض حقه ، ولا يقتصر على جسمه ، بل يصف مرحه ونشاطه ، وسرعة عدوه وقوته وصلابته ، حتى ليدركه الوحوش فلا يدركه نصب ولا يحس الكلال :

وَيَوْمَ كَلِيلِ الْعَاشِقَيْنِ كَمَنْتُهُ أَرَأَيْتَ فِيهِ الشَّمْسَ : أَيَّانَ تَغْرُبُ ؟
وَعَيْنِي إِلَى أَذْنِي أَغْرَّ كَأَنَّهُ مِنَ اللَّيْلِ ، بَاقٍ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَوَكْبُ
لَهُ فَضْلَةٌ عَنْ جِسْمِهِ فِي إِهَابِهِ تَجِيءُ عَلَى صَدْرٍ رَحِيبٍ وَتَذْهَبُ
شَقَقْتُ بِهِ الظُّلُمَاءُ ، أَدْنِي عَنَانَهُ فَيَطْعَى ، وَأُرْخِيهِ مِرَاراً فَيَلْعَبُ
وَأَصْرَعُ أَيَّ الْوَحْشِ قَفَيْتُهُ بِهِ وَأَنْزِلُ عَنْهُ مِثْلَهُ حِينَ أَرْكَبُ
ولخبرة شاعرنا بالخيال ، وكثرة معاناته لأموارها ، يقف بالسامع بعد هذا الوصف يلقي عليه درس خبير بصفاتهما ومنافعها ، ويحذره أن يشغله عن الصفات ظاهر أعضائها ؛ ولكنه لا ينسى أن يلتفت إلى معنى يملك عليه نفسه فيسجله ، وهو يدور الإخلاص في الأصدقاء .

وَمَا الْخَيْلُ إِلَّا (كَالصَّدِيقِ) قَلِيلَةٌ وَإِنْ كَثُرَتْ فِي عَيْنٍ مِّنْ لَا يُجَرَّبُ
إِذَا لَمْ تُشَاهِدْ غَيْرَ حُسْنِ شَيَاتِيهَا وَأَعْضَائِيهَا ، فَالْحُسْنُ عَنْكَ مُغَيَّبُ

وهنا نلاحظ أن أبا الطيب لا يقف كثيرا عند ظاهر الألوان والحركات ؛ ولا يلبث أن تسابق بصيرته المفكرة عينه المبصرة ، لتسجيل صفات الأشياء وما يرجو من جدواها ؛ فانظر إلى وصفه للخيل بقوة الحوافر وصلابتها ، وصدق النظر في الظلام وبعد مداه ، وحدة السمع ، ووضوح ما تسمع ، على ما به من شديد الخفاء :

تَمَاشَى بِأَيْدٍ كُلَّمَا وَافَتْ الصَّفَا تَقَشَّنَ بِهِ صَدْرُ الْبُرَاةِ حَوَافِيَا ^(١)
وَتَنْظُرُ مِنْ سُودِ صَوَادِقٍ فِي الدُّجَى يَرَيْنَ بَعِيدَاتِ الشُّخُوصِ كَمَا هِيَ
وَتَنْصِبُ لِلْجَرَسِ الْخَفِيِّ سَوَامِعًا يَخْلَنَ مُنَاجَاةَ الضَّمِيرِ تَنَادِيَا

ومثل ذلك وصفه للسيوف برقة المضارب ، لتكون أسرع نفاذا في الضرائب ؛ وباللبعان كشعل النار ، لتكون أشد رهبة في نفوس الأعداء ؛ وبالجرى كالمحرز مع أنها تدين بحل الدماء :

وَعَوَارِ لَوَامِعٍ دِينَهَا الْحُلُّ ، وَلَكِنَّ زِيَّهَا الْإِحْرَامُ
وَأَجْمَلُ مَا وَصَفَ بِهِ السِّيفُ أَنَّهُ يَهْتَدِي إِلَى الْمَقَاتِلِ فِي ظِلَامِ النَّعَمِ ، حَيْثُ لَا يَرَى الْمَحَارِبَ نَفْسَهُ :

يَرَى حَدَّهُ غَامِضَاتِ الْقُلُوبِ إِذَا كُنْتُ فِي هَبْوَةٍ لَا أَرَانِي
وَلَكِنْ لَا يَفُوتُنَا هُنَا أَنْ نَشْهَدَ لَابِنِ دَرِيدٍ بِسَبْقِ أَبِي الطَّيِّبِ إِلَى هَذَا ، بَلْ كَانَ أَبْلَغَ مِنْهُ وَأَكْثَرَ مَبَالِغَةً ، إِذْ يَقُولُ فِي مَقْصُورَتِهِ :

يُرَى الْمُنُونُ حِينَ تَقْفُو إِثْرَهُ فِي ظُلْمِ الْكَبَادِ سَبِيلًا لَا تُرَى
وَيَصِفُ أَبُو الطَّيِّبِ أَسْنَةَ الرِّمَاحِ فَيَقُولُ :

قَوَاضٍ مَوَاضٍ ، نَسِجَ دَاوُدَ عِنْدَهَا (إِذَا وَقَعَتْ فِيهِ) كَنْسِجِ الْخَدَرْتَقِ ^(٢)

(١) الصفا : الصخر ، وهي تؤثر فيه أشباه صدور البراة

(٢) الخدرتق : العنكبوت

تَفَكُّ عَلَيْهِمْ كُلَّ دِرْعٍ وَجَوْشَنٍ وَتَقَرَّى إِلَيْهِمْ كُلَّ سُورٍ وَخَنْدَقٍ
غير أن هذا الوصف (الذى يميل نحو المعنويات) لا يصح أن يشغلنا عن
رواية يبتين له في وصف السيف حسيا، لما فيهما من جمال التصوير، فانظر إلى
شُطْبِ السيف التي تشبه طرق النبال، كيف يتخيلها أبو الطيب ماء استعمل في
الرقم على لهب النار، فكان أدق شيء كالخط الذي في العوذ (الأحبة)، وأعجب
كيف يبرق البصر ويتحير من رقرق ماء السيف وتموجاته:

تَحْسَبُ الْمَاءَ خَطًّا فِي لَهَبِ النَّارِ أَدَقُّ الْخُطُوطِ فِي الْأَخْرَازِ
كُلَّمَا رُمَتْ لَحْظُهُ مَنَعَ النَّارَ ظَرِّ مَوْجٍ، كَأَنَّهُ مِنْكَ هَازِي

- ٣ -

أما البادية فلها أكبر الأثر في نفس أبي الطيب، فهي تعرفه وهو يعرفها
ويستريح إليها، وكم عاش فيها، وتقلب بين نواحيها، وكم سلك منها مهالك تخون
الذئب فيها نفسه، وتخذل الغراب قوائمه، حتى صار بها مغرما، يغلب على شعره
ذو رمناظرها، ويصطبغ بصبغتها أسلوبه؛ بل إنه ليؤثرها على الحاضرة، ويفضل
في غزله أن يهيم بالبدويات ذوات الحسن الأصيل الموهوب، دون الحضريات
ربّات الجمال المصطنع المجلوب:

هَامَ الْفُؤَادُ بِأَعْرَاسِيَّةٍ سَكَنَتْ
يَتَانًا مِنَ الْقَلْبِ لَمْ تَمُدُّ لَهُ طُنْبًا
حُسْنُ الْحَضَارَةِ مَجْلُوبٌ بِتَطَرِيَةٍ
وَفِي الْبَدَاوَةِ حُسْنٌ غَيْرُ مَجْلُوبٍ

أفدى طبيباً فلاه، ما عرفن بها
مَضْغُ الْكَلَامِ، وَلَا صَبْغُ الْحَوَاجِبِ
فليس عجيباً أن يختزن في نفسه صور حيوان البادية: من نوافر الظباء، وأوابد
الوحوش، ونجائب الابل، وعناق الطير، وكلاب الصيد؛ حتى إذا عرض له
ما يدعو إلى وصفها كانت صورها واضحة في ذهنه، لا يحتاج إلى استدعائها، ولا
يعنى نفسه في تلبسها واستحضارها، بل إن أوصافها لتفيض على لسانه لأقل

الدواعي والمناسبات . استمع اليه إذ يصف الجيش كأنما ينظر إليه من طيارة ،
فتسبق اليه صورة العقاب ، فلطالما رآها وألف مشاهدتها ، حتى ارتسمت في قلبه
وتمثلت في عينه :

يَهْرُ الْجَيْشُ حَوْلَكَ جَانِبِيهِ كَمَا هَزَّتْ جَنَاحِيهَا الْعُقَابُ

فالبيداء هي مدرسته الأولى ، التي غذت بمنظرها خياله ، وأطلقت في تصويرها
خياله ، وحسبك دليلا على ذلك أن تراجع ديوانه ، فترى أنه لم يجعل الوصف
من الأغراض التي يخصص لها قصيدة ، إلا فيما يمت إلى البادية بأقوى الأسباب ؛
فليس في الديوان (على شرة ما فيه) قصيدة قائمة على الوصف فحسب ، إلا
أرجوزة في حصان تأخر عنه ظهور الكلا ، لوقوع الثلج ، وأخرى طويلة يروى
أنه نظمها ارتجالا في وصف كلب صيد عن له غزال ، فانقض عليه واقتنصه بعد
طراد ؛ وثالثة قصيرة في نزهة جبلية وكلاب صيد أيضا ، ومقطوعة صغيرة في
وصف باز انطلق على حجلة فدق عنقها .

وهو في أكثر هذا الوصف يمثل رؤية ، والعجاج ، وأبا النجم ، في أراجيزهم
(على بعد العهد بهم) ولا عجب فقد استوحى البادية الأغراض ، واستلهمها
الخيال ، واستملاها الألفاظ ، حتى لقد آثر في جلها أن يجلوها في معرض
الرجز ، وهو بحر البادية ، ووزن الترحل بين أرجائها ، وغناء المأخمين والمأخمين
بالدلاء على الآبار ؛ ونلاحظ هنا أن الروح الحرية قد ساعدت النزعة
البدوية : أما في الحصان فإنه من عدة الحرب كما أسلفنا ، وأما البقية فهي صيد
وقنص ، ولا شك أن البراعة في الصيد والطرْد تخدم المهارة في الحرب وتعين
عليها . على أن الطرد حرب ، وإن خلا القرن فيه من السلاح والضعيفة
والأحقاد . وهنا نجد شعر المتنبي متسقا مع نفسه ، مصورا لشعوره أصدق
تصوير ، حتى في الميزان والأسلوب .

وقع الثلج وطال أمد إقامته ، فتأخر ظهور الكلا ، ثم ذاب الثلج ، وظهر
مكانه نبت قصير في أما كن متباعدة ، فانطلق مهر أبي الطيب يرعى هذا النبت
القليل ، فجعل ينظر اليه ، ويصفه وصفا غريبا ، وكأنما اصطلحت الظروف على

الإغراب، فكان اسم ذلك المهر أشد غرابة، فالتنبي يقدمه للقارىء باسم (الطخور)، وجماءت الأرجوزة على حرف القاف مثال الشدة والقلقلة؛ ولكنه مع هذا وصف بارع بديع؛ وإنى أسوق صدرا منه واعداء بشرحه، فلا تكونن غرابته حائلة دون روايته وتدبر معانيه:

مَا لِلْمُرُوجِ الْخُضْرِ وَالْحَدَائِقِ يَشْكُو خَلَاهَا كَثْرَةُ الْعَوَائِقِ؟
أَقَامَ فِيهَا الثَّلْجُ كَالْمُرَاقِ يَعْقِدُ فَوْقَ السِّنِّ رَيْقَ الْبَاصِقِ
ثُمَّ مَضَى، لَاعَادَ مِنْ مُفَارِقِ! بِقَائِدٍ مِنْ ذَوْبِهِ وَسَائِقِ
فهو يقول: إن نبت هذه المراعى الفسيحة، قد منعتة التبكير في الظهور
موانع حجة، كالبرد، والثلج الذى طالت إقامته فيها، ولشدة برده يجعل ريق
الباصق جامداً على أسنانه (وهذا وصف بدوى جاف أبرد من جليد القطبين)
ولما أذاب الحر انحسر، فمضى متدفعا يسوق بعضه بعضا.

وبعد ذلك يصف النبت بالقصر والقلّة، وكأن المهر (إذ يرعاه متنقلا مسرعا
لتباعده) منطلق إثر إنسان هارب يبغي إدراكه؛ ويزيد في وصف النبت أنه
لاصق بالأرض، وأن تناول الحصان له (مترددا هنا وهناك) شبيه بمخوك الحبر
من الصحائف، متنقلا من هذه إلى تلك مسرعا، ثم يشبهه بالشاهين (في عبارة
بدوية لا أثر فيها للحاضرة):

كَأَنَّمَا الطُّخْرُورُ بَاغِي آبِقِ يَا كُلُّ مَنْ نَبَتٍ قَصِيرٍ لَاصِقِ
كَقَشْرِكَ الْحَبْرِ مِنَ الْمَهَارِقِ أُرُودُهُ مِنْهُ بِكَالسُّودَانِقِ^(١)
ويصفه بمخالفة يمينه باقى القوائم لونا، وبطول عنقه، وغلظ أطرافه، وتداني
مرافقه، وسعة صدره، وشرف أخلاقه لكرم وعتقه، واتساع منخره،

(١) السودائق: الشاهين معرب، والكاف بمعنى مثل، والهاء في أروده للنبت،
وفى منه للحصان - أرود هذا النبت بمثل الشاهين من هذا الحصان.

وَضُمُورُ خَاصِرَتِهِ ، وَالتَّحْجِيلُ ، وَارْتِفَاعُ الْجَسْمِ وَإِشْرَافُهُ ، وَحُمْرَةُ لَوْنِهِ حُمْرَةُ
مَتَوَسِّطَةٍ ، وَتَوَسُّطُهُ بَيْنَ السَّمِينِ وَالْمَهْزُولِ :
بِمُطْلَقِ الْيُمْنِ ، طَوِيلِ الْفَائِقِ عِبْلِ الشَّوْىِ ، مُقَارِبِ الْمَرَافِقِ ^(١)
رَحْبِ اللَّبَانِ ، نَائِهِ الطَّرَائِقِ ذِي مَنْخَرٍ رَحْبٍ ، وَأَطْلٍ لَاحِقٍ
مُحْجَلٍ ، نَهْدٍ ، كُمَيْتٍ ، زَاهِقٍ .

وقبل أن نودع هذا الحصان لا يفوتنا أن نروى فيه آياتنا أخف من السابقة ؛
ولكنها أدل على بدوية أبي الطيب ، وسعة معرفته بالبادية وحيوانها ومظاهرها ،
فهو يزعم لحصانه من الفضل : أنه فاق الخيل العتاق الضاربة في السن ولما يفارقه
شعر البطن ، وأرى على ذُكران النعام بدقة الساق وصلابتها ، ويبالغ في قوة
حوافره وصلابتها ، فوق حوافره في الأرض أشد من فعل الصواعق ؛ ثم يزعم
أنه أوفى على الأرانب في انتصاب الآذان ودقتها ، وهو بعدُ أحذر من العقق
(وهو طائر كالغراب يضرب به المثل في الحذر) - وهنا تحمى المتنبي مبالغته
فيضني على حصانه صفات لا يمتاز بها كثير من بني الإنسان ، فهو خير بالكلام
يعرف هزله وجده ، ذكي حاد لا ينام الليل ، بل يحرس الركب النيام ، وينذرهم
باللص إذا أحس اقترابه ، وهو ماهر حكيم فيما يأتي وما يدع ، ولكنه قد يظهر
بعض الحق ، لشدة جريه ، وتناهيه في عدوه :

بَذَ الْمَذَاكِي وَهُوَ فِي الْعَقَائِقِ وَزَادَ فِي السَّاقِ عَلَى النَّقَائِقِ
وَزَادَ فِي الْوَقْعِ عَلَى الصَّوَاعِقِ وَزَادَ فِي الْأُذُنِ عَلَى الْخَرَائِقِ
فِي الْحِذْرِ عَلَى الْعَقَائِقِ يُمَيِّزُ الْهَزْلَ مِنَ الْحَقَائِقِ
وَيُنْذِرُ الرَّكْبَ بِكُلِّ سَارِقٍ يُرِيكَ خُرْقًا وَهُوَ عَيْنُ الْحَادِقِ

ويروى أن أبا على الأوراجي أرسل كلبا على ظبي فقنصه ، فتدفق أبو الطيب

(١) الفائق مفصل الرأس في العنق - كناية عن طول الرقبة .

بحرا متلاطم الموج، وجعل يهدر في تصوير هذا المنظر بأرجوزة طويلة، حتى استكمل الصورة، برسم مكانها، وتصوير الظبي، ثم الاطئاب في الكلب وطرده. الظبي حتى غلبه وعلاه: فوصف الروض الذي نزلوه بأنه غير معد لاقامتهم، بل هو منزل تباكره أيدي السحائب المواطل، فهو رطب الخزامى، ذكي رائحة القرنفل، تغدو فيه الوحوش وتروح، وليس يحمله الناس:

وَمَنْزِلٍ لَيْسَ لَنَا بِمَنْزِلٍ وَلَا لَغَيْرِ الْغَادِيَاتِ الْهَاطِلِ
نَدَى الْخُزَامَى، ذَفِرَ الْقَرَفُلِ مُحَلَّلٍ مِ الْوَحْشِ، لَمْ يُحَلَّلِ^(١)

ثم انتقل إلى الظبي فكان فيه متغزلا رقيقا، كأنما ينسب به ويشب تشبها، فوصفه وصفا تحسده عليه الغايات لولا قرناه، وأنه هالك بعيد النجاه:

عَنْ لَنَا فِيهِ مُرَاعِي مُغْزِلٍ مُحَيِّنُ النَّفْسِ، بَعِيدُ الْمَوْتِ^(٢)
أَغْنَاهُ حُسْنُ الْجِيدِ عَنْ بُنْسِ الْحُلِيِّ وَعَادَةُ الْعُرَى عَنِ التَّفَضُّلِ
كَأَنَّهُ مُضْمَخٌ بِصَنْدَلٍ مُعْتَرِضًا بِمِثْلِ قَرْنِ الْأَيْلِ
يَحُولُ بَيْنَ الْكَلْبِ وَالتَّائُلِ

وتدفع سيله في وصف الكلب عن تجربة واختبار، فقال: إنه واسع الشدقين، ذو ساجور وسلسلة في عنقه، ضامر مفتول، يسطو بشراسة، وفي خلقه طول، وليس يلهيه ولا يفزعه ويحيره بغام الغزال، بل يمضي في الانقضاض عليه، مع شدة متنه وقفاره، ولين مفاصله، ليكون مقداما سريع العدو والقنص؛ وهو (فوق ذلك) كثير التلفت، حديد البصر؛ فيرى مدبرا كما يلحظ مقبلا، وعينه في صفاء المرأة، يسرع في الحزون سرعته في السهول، فإذا تسابق مع كلاب آخر وكان في أول الشوط تاليا متأخرا، بلغ نهاية الشوط سابقا متبوعا لاتابعا:

(١) يريد من الوحش، خذف النون على لغة تجرى بها ألسنتنا الآن في الدارجة

(٢) المغزل: الظبية وراها ولدها. ومراعيها: ظبي يرعى معها - والمحين من

الحين وهو الهلاك

فَحَلَّ كَلَّابِي وَثَاقَ الْأَخْبَلِ عَنْ أَشْدَقِ بُسُوجِرٍ مُسْلَسَلِ
 أَقْبَ، سَاطِ، شَرِسٍ، شَعَرَدَلِ مِنْهَا، إِذَا يُثْنَعُ لَهُ لَا يَنْزَلِ^(١)
 مُؤَجَّدِ الْفِقْرَةِ، رِخْوِ الْمَفْصِلِ لَهُ - إِذَا أَدْبَرَ - لَحْظُ الْمُقْبِلِ
 كَأَنَّمَا يَنْظُرُ مِنْ سَجَنَجَلِ يَعْدُو - إِذَا أَحْزَنَ - عَدُوَّ الْمُسْهَلِ
 إِذَا تَلَا جَاءَ الْمَدَى وَقَدْ تُلِي

ثم ما ذا يرى القارىء في هيئة الكلب مقعيا لأخذ الصيد، إذ يرسمه المتنبي بهذا البيت :

(يُقْنَعِي جُلُوسَ الْبَدْوِيِّ الْمُضْطَلِّي) ؟ إنه لتصويرٌ عبقرى مفتنٌ ! انظر كيف يجلو أمامك هذه الصورة في هيئة البدوي الجالس مقبلا على النار بأعلى جسمه مباعدا بين ركبتيه ؛ ليستوفى أكثر ما يمكن من الدفء لاكثر الأعضاء . والأرجوزة طويلة جدا ، وجل أياتها في الحسن سواء ، ومن حق المتنبي أن نرويها كلها ، والمقام يضيق عنها كاملة . فلنقتصر (بعد ما مر) على طرد الكلب للظبي الذي وقع في قبضة المنون ، بأنياب ذلك الكلب الحداد كالنصال ، وفيها الهلاك :

فَأَنْبَرِيَا فَذَيْنِ تَحْتَ الْقَسْطَلِ قَدْ ضَمِنَ الْآخِرُ قَتْلَ الْأَوَّلِ
 فِي هَبْوَةٍ كِلَاهُمَا لَمْ يَذْهَلِ مُقْتَحِمًا عَلَى الْمَكَانِ الْأَهْوَلِ^(٢)
 يَخَالُ طُولَ الْبَحْرِ عَرْضَ الْجَدُولِ حَتَّى إِذَا قِيلَ لَهُ : نِلْتَ ، أَفْعَلِ

(١) الثغاء : صوت الشاة شبه به بغام الغزال - وجزم فعلين باذا - وهو خاص بالشعر في لغة . كما قال الأول :

استغن ما أغناك ربك بالغنى وإذا تصبك خصاصة فتجمل .

(٢) الهبوة : الغيرة ، والقسطل : الغبار أيضا .

افترعن مذروبة كالأُنْصَلِ لا تعرفُ المهدَ بصقلِ الصَّيْقَلِ
 مُرَكَّبَاتٍ فِي الْعَذَابِ الْمُنْزَلِ كأنَّهَا مِنْ سُرْعَةٍ فِي الشَّمَالِ
 كأنَّهَا مِنْ ثَقَلٍ فِي يَذْبَلِ كأنَّهَا مِنْ سَعَةٍ فِي هَوَجَلِ (١)
 كأنَّهُ مِنْ عِلْمِهِ بِالْمَقْتَلِ عِلْمَ بِقِرَاطٍ فِصَادَ الْأَكْحَلِ

ولما أوقع عضد الدولة بالأكراد، عاد يتلّهى بالصيد في برية جبلية في طبرستان، مأهولة بصنوف الطير المائي، وضروب الحيوان الوحشي : من أيائل، وأسود وخنازير، وأشبال وخنايص (٢)، وديبه وغزلان، ونعام ورتال، وضباب وأورال (٣)، وبقر وثيران؛ وهنا وجدت شاعرية صاحبنا مناظر خصبة، فيها لعينه مجال، ولخياله مدد فياض، ووجد هو مكان القول ذا سعة فقال، وأوسع تلك البريقوصفا، ولم يمدح عضد الدولة بمقدار ما أسرف في وصف حيوانها، ولا سيما الوعول (التيوس الجبلية) فقد أبدع في تصويرها تصويراً أساخراً بليغاً، وكانت ليحائها أشد ما هاج سخريته البارعة؛ فانظر إليه يصف قرونها، فيجلوها قسيّاً من شجر الضال طويلة مسترسلة على ظهورها، لا تفتقر أطرافها عن نخس أكفالها، حتى لتكادُ تنفذ من خواصرها:

وَأَوْفَتِ الْقُدْرُ مِنَ الْأَوْعَالِ مُرْتَدِيَاتٍ بِقِسْيِ الضَّالِ (٤)
 نَوَاحِسَ الْأَطْرَافِ لِلْأَكْفَالِ يَكْدَنَ يَنْفُذَنَّ مِنَ الْإِطَالِ

(١) الهوجل: الأرض الواسعة.

(٢) الخنايص جمع خنوص: صغار الخنازير.

(٣) جمع وول: دوية شبيهة بالضب.

(٤) القدر: جمع فدور على فعل «بضمين» وأسكنها للوزن. والفدور من الوعول: المسنة الضخمة. وأوفت: أشرفت.

ثم انظر كيف استخفت لحي الأوعال وقاره ، وذهبت برزاته واتزانه ،
فاوسعها استهزاء وسخرا لا يخلو من معنى مقصود سنعود إليه بعد :

لَهَا لِحْيٌ سُوْدٌ بِلَا سِبَالٍ تَصْلَحُ لِلإِضْحَاكِ لَا لِالإِجْلَالِ ^(١)
كُلُّ أَثِيثٍ نَبْتُهَا ، مِتْفَالٍ لَمْ تُمِذْ بِالْمِسْكِ وَلَا النِّوَالِ ^(٢)
تَرْضَى مِنَ الأُدْهَانِ بِالْأَبْوَالِ وَمِنْ ذِكْيِ الْمِسْكِ بِالدِّمَالِ ^(٣)
لَوْ سُرِّحَتْ فِي عَارِضٍ مُحْتَالٍ لَعَدَّهَا مِنْ شَبَكَاتِ الْمَالِ
بَيْنَ قُضَاةِ السُّوءِ وَالْأَطْفَالِ

ولا بد هنا من استكمال صورة الأوعال ، وهن يتساقطن من رموس الجبال ،
بعد أن أختبها سهام الرماة بالجراح ، فهن يعدون على فقار الظهور والأقفاء ،
غير شاكيات من الكلال ، فقد كفاهن الانحدار إياه ، ولا خائفات من الضلال ،
فالأرض غاية السفر ونهاية مداه :

فَهُنَّ يَهُوِينَ مِنَ الْقِلَالِ مَقْلُوبَةً الْأَظْلَافِ وَالْإِرْقَالِ
يُرْقِلْنَ فِي الْجَوِّ عَلَى الْمَحَالِ فِي طُرُقٍ سَرِيعَةٍ الْإِيصَالِ ^(٤)
يَنْمَنَ فِيهَا نَيْمَةَ الْكِسَالِ عَلَى الْقَفِيِّ أَعْجَلَ الْعِجَالِ
لَا يَتَشَكُّنَ مِنَ الْكِلَالِ وَلَا يُحَازِرْنَ مِنَ الضَّلَالِ

(١) السبال : شجر الشفة العليا

(٢) الأثيث : الكثير الملتف ، ومتفال : منتنة الريح

(٣) الدمال : زبل الدواب (السرقين : السرجين)

(٤) الإرقال : نوع من السير ، فعله أرقل يرقل ، والعامّة المعنيون بالدواب يقلبون

عاقفه جيما مصرية

— ٤ —

وليس عجيباً أن يتبع المتنبي هذا الأسلوب في هذا النوع من الوصف ،
ويؤثر الإغراب فيه على الموضوع ، ويختار له وزن الرجز خاصة ؛ فإن أبا
نواس مع كثرة دعوته للتجديد ، وشدة نفرتة من الأساليب البدوية ، أراد أن
يظهر براعته وسعة علمه بالغريب ، فنظم في مثل أسلوب أبي الطيب (بل أقوى
منه وأصلب) أرجوزته التي أولها : وبلدة فيها صعر - ويقول فيها :

مرّت إذا الذئبُ اقتفرُ بها من القوم الأثر (١)

كان له من الجزر كل جنين ما اشتكر (٢)

ولا تلاءه شعر ركبها على غرر ... الخ

وله فوق هذا أرجوزتان في كلب الصيد ، هما مثال الجزالة والإغراب ؛ وإن
بشاراً نظم أرجوزته التي أولها : (يا طلل الحى بذات الصمدي) تحدياً لمن استعجزه
أن يجيد النسيج على هذا المنوال ، وهما بعدد من الموالى غير المحافظين في لغة
العرب على القديم ؛ فكيف بالمتنبي وهو العربي الصميم ، والبدوي القح حتى في
الغزل والنسيب ؟

وإذ ترمى بنا القول إلى بشار وأبي نواس ، وجب أن نذكر عاملاً ثالثاً كان
عميق الأثر في شاعرية أبي الطيب ؛ وفي هذا النوع من الوصف على الخصوص ؛ ذلك
هو استيعابه لكثير من شعر السابقين ، وليس من شك في أنه كان جيد الحفظ
قوى الذاكرة ، وقد سبق عهد التدوين أيامه ، واستبحرت دراسة الأدب القديم ،
وقد كان (فيما يروى) يغشى الوراقين ويطيل اللبث عندهم ، ويتناول كتبهم
فيشبع منها نهمه في طلب الأدب ، ويروى غلته بحفظ الشعر الكثير ، وكان
(فيما يقال) يحفظ ديوان أبي تمام ويعجب به ؛ ومن كل ذلك نرى أنه قد حفظ
كثيراً من الشعر القديم (ولا سيما ما يتعلق بالبادية) حفظ متدبر ، وهضم
محفوظه ، فاستطاع أن يمثله ولكن على طريقته . يقول أبو نواس في الخمر :

(١) اقتفر : اتقى وتبع الأثر

(٢) اشتكر : نبت عليه شعر البطن ، وهذا كناية عن إجهاض النوق

في كئوس كأنهن نجوم جاريات ، بروجها أيدينا
طلعات مع السقاة علينا فإذا ما غربن يغربن فينا

فيتأثره (أو مثله) المتنبي في التصوير ، فيصف السيوف قائلا :

خُلِقْنَ شُؤْسًا ، وَالْعُمُودُ مَشَارِقُ لَهْنٍ ، وَهَامَاتُ الرِّجَالِ مَغَارِبُ

أما بيان مبالغ تأثره القدماء ومقدار تأثير شعرهم في شعره ، فبحسبنا الآن أن نلاحظ حرصه على الرجز في الطرد ، وأنه لم يتحلل من طريقة الأقدمين ، فكان الطرد عندهم لا يحمل إلا في حلل الأراجيز ؛ أما استيعاب هذا الموضوع فيجوز بنا عن القصد ، ولا نستطيع هنا أن نأتى فيه بما يشفى الغليل ، ويكفي أن نشير إلى بعض أطرانه في تضاعيف الكلام . وقد تجمعت كل العوامل السابقة ، فأعنته على الاجادة والإيقان في كثير من الوصف ، ولا سيما وصف الأسد ؛ فنماظر البادية متمكنة من نفسه ، والروح الحربي ممتلك لشعوره وحسه ، وهو طبعاً قرأ وحفظ وصف البحترى والفرزدق للذئب ، واجتمع إلى كل هذه العوامل إعجابه بالرجال الأقوياء ، الذين يرجو أن يعود على أيديهم مجد العرب سيرته الأولى ، كبدر بن عمار (الرجل) الذي نازل الأسد وتغاب عليه ، وكان قد أعجله عن انتضاء سيفه ، فبادره بالسوط ، وكانت لابن عمار الغلبة ، وهو منظر يستدعي الشعر ، ويدعو إلى التجويد فيه والإبداع ، وكلام المتنبي فيه متعالَم مشهور ، فلا نروى منه إلا بيتا يدل على مبلغ دهشة الشاعر وإعجابه بابن عمار . استمع إليه وهو يصيح منادياً :

أَمْعَرُ اللَّيْلِ الْهَزْبِ بِسَوَظِهِ لِمَنِ ادَّخَرْتَ الصَّيَّارِمَ الْمَعْقُولَا ؟!

— ٥ —

وأنت ترى أبا الطيب يستوحى هذين العاملين القويين في تكوين خياله وأسلوبه : (البادية وحيواناتها ، والحرب وآلاتها) فإذا شهد ما عمت إليهما بنسب ، ويتصل معهما بسبب ، جاشت شاعريته ، فكان مصوراً لبقاً بارعاً ، وأتى بالعجب

العجاب ، ومن ذلك وصفه لفازة كان فيها سيف الدولة . وهي خيمة ديباج ، عليها صور رياض ذات دوح وطير وحيوان ، وهي مؤلفة من عدة أثواب ، كل منها ذو وجهين ، وعلى حواشيه دوائر بيض لطيفة ، كأنها اللؤلؤ المنظوم ، وقد رُسم الحيوان في هيئة المهارشة والمهاجمة والمدافعة ، لكنه في الصورة جماد ليس بينه هراش ولا هجوم ولا دفاع ، فاستمع إليه ، وانظر إلى الصور الجمادية ، التي ينفخ فيها من روح الشعر ، ويضفي عليها من قوة الخيال ، ما يجرحها أمام ناظريك ، وينقل أصواتها إلى مسمعك :

وَأَحْسَنُ مِنْ مَاءِ الشَّبِيبَةِ كُلِّهِ حَيَا بَارِقٍ فِي فَازَةٍ أَنَا شَائِدُهُ ^(١)
عَلَيْهَا رِيَاضٌ ، لَمْ تُحْكَمْهَا سَحَابَةٌ وَأَغْصَانُ دَوْحٍ ، لَمْ تُغْنِ حِمَائِدُهُ
وَفَوْقَ حَوَاشِي كُلِّ ثَوْبٍ مَوْجَهُ مِنْ الدَّرِّ ، سَمِطٌ لَمْ يُثَقِّبْهُ نَاطِمُهُ
تَرَى حَيَوَانَ الْبَرِّ مُصْطَلِحًا بِهَا يُحَارِبُ ضِدَّ ضِدِّهِ ، وَيُسَالِمُهُ

وتأمل البيت الآتي بوجه خاص . فهو ينقل إليك صورة الخيل في الميدان ، وصورة الأسد تختل الظباء لتصيدها ، وتطردها لتدركها (يعبر عن ذلك بالفعل تدأى)

إِذَا ضَرَبَتْهُ الرِّيحُ مَاجَ ، كَأَنَّهُ تَجُولُ مَذَاكِهَ ، وَتَدَأَى ضَرَاغِمُهُ
وإنه ليدكرنا قول البحترى في إيوان كسرى وما عليه من نقوش حربية :
وَالْمَنَائِلَ مَوَاتِلَ ، وَأَنُوشِرُ وَأَن يُزْجِيَ الصَّفُوفَ تَحْتَ الدَّرَفَسِ ^(٢)
يغتل فيهم ارتياني حتى تنقراهمو يداى بلمس
وكذلك قول أبي نواس في كأس ذهبية ، عليها نقوش فارسية :
تدار علينا الراح في عسجدية حَبَّتْهَا بِأَنوَاعِ التَّصَاوِيرِ فَارَسُ

(١) يريد بقوله (حيا بارق) سيف الدولة على الاستعارة التصريحية .

(٢) الدرفس : العلم .

قرارتها كسرى ، وفي جنباتها مهأ تدرىها بالقسي الفوارس
ومن بين تلك النقوش (على الفازة) رسم ملك الروم ، وقد تخيله المتنبي
(مادم سيف الدولة بإخلاص) ذليلاً مهيناً ، لكثرة ما أوقع به ذلك الممدوح ،
حتى إذا رسم الصانع صورته على هذه الثياب ، فلا مفر من ظهور الذلة عليها ؛
إذ أصبحت ضربة لازب على هيئته لا تفارقها :

وَفِي صُورَةِ الرُّومِيِّ ذِي التَّاجِ ذِلَّةٌ لَا بُلَجَ ، لَا تَبْجَانُ إِلَّا عَمَائِمُهُ
ويرى بعض الباحثين المعاصرين (فيما حاضر به عن سيف الدولة ونزعتة
الفنية) :

(١) أن لسيف الدولة صورةً على أحد وجهي الفازة ، وأمامها صورة
ملك الروم في ذلة وخضوع ، وإنا نلتبس له بعض العذر فيما ارتأى ، ففي بعض
شروح الديوان بعد هذا البيت ما يأتي : « يقول صورة ملك الروم على هذا
الثوب ساجد (كذا) لسيف الدولة ، وقد خضع له وتذلل على عادته وإن كان
متوجاً ، لاحظ قوله (على عادته) يساعدك فيما تستقبل من رأينا .

(ب) ويرى أيضاً أن ثلاثة الآيات تكملة لوصف النقوش التي على
الفازة ؛ وها هي ذى .

تَقْبَلُ أَفْوَاهُ الْمُلُوكِ بِسَاطِهِ وَيَكْبُرُ عَنْهَا كُمُهُ وَبَرَاكِهُ (١)
قِيَامًا لِمَنْ يَشْفِي مِنَ الدَّاءِ كِيَهُ وَمَنْ يَنْ أُذُنِي كُلِّ قَرْمٍ مَوَاسِمُهُ (٢)
قَبَائِلُهَا تَحْتَ الْمَرَافِقِ ، ذِلَّةٌ وَأَنْفَذُ مِمَّا فِي الْجُفُونِ عَزَائِمُهُ (٣)

ولا عذر لمن يصطنع هذه الدعوى الثانية ، فليس في الكلام ما يُسيغها .

والذي نرضاه هو أن حقيقة ملك الروم في خيال المتنبي ذليلة (كما أسلفنا)

(١) البراجم : عظام ظاهر الكف ، أو رموس مفاصل الأصابع .

(٢) يكنى بالداء عن غوائل الأعداء ، وبالكى عن الضرب والطمع ، والقرم =

السيد ، والمواسم : جمع ميمم ، وهو الذي يوسم به ، شبيهة بالمكواة .

(٣) القبائع جمع قبيعة ، وهي الحديدية على مقبض السيف

وأن هذه الفائزة (فيما نرى) ليست من صنع العرب ، وإنما هي من عمل الروم ، وقد تكون وقعت لسيف الدولة مغنما أو شراء ؛ وقد كانت المتاجر متبادلة بين المتجاورين ؛ وقد أهدى سيف الدولة لآبى الطيب (فيما كان يهدى) ثياب ديباج من صنع الروم ، وعليها صور بعض ملوكهم ، وصور قيان مغنيات وخيل وأشياء أخرى ، فقال فيها :

ثِيَابُ كَرِيمٍ مَا يَصُونُ حِسَانَهَا إِذَا نَشِرَتْ كَانَ الْهَبَاتُ صَوَانَهَا
ثُرَيْنَا (صَنَاعُ الرُّومِ) فِينَا مُلُوكَهَا وَتَجَلُّو عَلَيْنَا نَقْشَهَا وَقِيَانَهَا
وَلَمْ يَكْفِهَا تَصْوِيرُهَا الْخَيْلَ وَخَدَهَا فَصَوَّرَتْ الْأَشْيَاءَ إِلَّا زَمَانَهَا
وَمَا ادَّخَرَتْهَا قَدْرَةً فِي مُصَوِّرٍ سِوَايَ أَنَّهَا مَا أَنْطَقَتْ حَيَوَانَهَا^(١)

فأنت ترى (معي) أن هذه الثياب من الديباج ، والفائزة من الديباج ؛ وعلى كل منهما صورة ملك الروم والخيل ، وزادت الثياب صورة القيان ، واختصت الفائزة بالأسد والحيوان والدوائر البيض . ثم ترى نصا صريحا في البيت الثاني هنا أن الثياب المهداة من عمل (صناع الروم) لاشبهة في ذلك ؛ فهل من شك (بعد هذا النص وهذا التشابه في أكثر الصور) أن الفائزة من صنع الروم ؟ بل إن ثياب الفائزة (فيما نرى) من نوع ثياب الهدية . وقد وصف كليهما الشاعر ، فأتى ببعض الوصف مشتركا فيهما ، واختص كلا منهما بزيادة يقتضيها مقامها . (وبعد) فلا أرى أن صناع الروم كانت تفكر في رسم سيف الدولة . فضلا عن تصويره عظيما ، وتصوير ملكها أمامه ساجدا ذليلا خاضعا ؛ فلا نرضى كلام الشرح ، ولا ما ذهب إليه الباحث الذي اعتمد عليه ؛ وفي قول الشرح (على عادته) لا تعترف به صناع الروم ، بل لا يوافق إلا خيال المتنبي في تصوير خصمه وخصم ممدوحه ، ووسمه بالذلة والهوان .

وتذهب في الدعوى الثانية (بعد ما عرفت من رد النقش إلى صناع الروم)

(١) ضمن ادخر معنى حرم ، فعداه إلى مفعولين ثانيهما قدرة .

أن لا صورة على الفازة لسيف الدولة وللبلوك خاضعين يقبلون بساطه ؛ بل هذا استكمال حقيقة سيف الدولة في خيال الشاعر ؛ وهو قد استأنف المدح بعد الوصف فأراد أن يذكر (لمناسبة ذلة الرومي) رفعة مقام الممدوح على الملوك وخضوعهم له ، يعمم بذلك ولا يخص ملك الروم ؛ والمضارع (تقبل ٠٠٠) في أول ثلاثة الأبيات للاستمرار التجديدي ، أي أن هذه الهيئة تتكرر كثيرا حيناً بعد حين ، ولو صح أن الصورة تمثل تقبيل البساط ، وقد وقع الملوك إلى الأرض ساجدين ، لما صح في البيت الثاني (قياما ٠٠٠) وليس من المعقول أن يقعوا للبساط مقبلين ، وقبائح السيوف تحت المرافق (في البيت الثالث) - وملاحظة أخرى تحول دون إساعة هذا التأويل ؛ وهي ذلك الشطر الأخير (وأنفذ بما في الجفون عزائمهم) فكيف يكون مدحا تفضيل العزائم على السيوف الصورية ؛ إنها ذن عزائمهم من مذروء الهشيم ، وسوافي الهواء ، وسوابج الهباء ! ألم تر أن السيف يقبح وصفه إذا قيل : هذا السيف خير من العصا ؟ !

- ٦ -

ولئن كان أبو الطيب ينبعث على سجية نفسه ، وينسجم مع مصادر شعوره وحسه ، حينما يجد مناظر البادية أو ما يقاربها ، إنه ليستغل خيالها فيما هو أبعد من ذلك : يرى سبى سيف الدولة من نساء الروم في وقعة على نهر (أرسناس) وقد ركب السفن لعبور هذا النهر ، فيثب خياله إلى كئس الظباء في جوف البادية ، فيقول (يحكى عن سيف الدولة ، وضمير فوقه لنهر أرسناس) : -

فَتَلَ الْجِبَالَ مِنَ الْغَدَائِرِ فَوْقَهُ وَبَى السَّفِينِ لَهُ مِنَ الصُّلْبَانِ
وَحَشَاهُ (عَادِيَةً) بَغِيرِ قَوَائِمِ عَقَمَ الْبُطُونِ ، حَوَالِكَ الْأَلْوَانِ
تَأْتِي بِمَا سَبَتِ الْخِيُولُ ، كَأَنَّهَا (تَحْتَ الْجَسَانِ) مَرَابِضُ الْغَزَلِ لَأَنَّ
وهذا وصف بارع جميل لولا المبالغة في البيت الأول ، وليست غريبة من

شاعرنا ، فكأنه أبوعذرها ، وحافظ سرها ؛ ألا ترى إلى السفن خيلا عاديات
بغير قوائم ، ليس من شأنها الولادة والتاج ، ينتظمها كلها لون واحد هو لون
القار ؟ والشطر الأخير ولا سيما (مرابض الغزلان) فيه جمال لا يقوم به كلام
آخر في هذا الباب ، ويشف عن رقة غزلية ، لا تهيأ إلا لنفس ناعمة هائلة ؛ ولعل
نشوة النصر قد أثلجت صدره ، وهزت عطفه ، وأشعرت هذوه البال ، ولعله في
هذا الطور من حياته كان يحس هدنة بينه وبين الدنيا على غير عادته ، أو لعلها
خطرة من المخاطر تسنح ثم تمضي !

أما وصفه لبحيرة طبرية فقد استلهم فيه خياله البدوي ، واستجاش شعوره
الحربي : يذكر في هدير الموج فحول الإبل تهدير بين النياق من غير شهوة للضراب
(قَطَمَ) ويتخيل في سبج الطير فوق زبد الماء مضطربة ذاهبة كل مذهب ، منظر
فرسان ركضوا مهارا بلقاً ، قد انتكشت أعنة لجُمها ، فهي تذهب حيث تشاء ،
ولا بد أن يستحضر نزالا وطعانا بين جيش : هازم ومهزوم ، إذ يرى الرياح
تضربها ، فتصطبق الأمواج ، فتضطرب الطيور يتبع بعضها بعضا : —

وَالْمَوْجُ مِثْلُ الْفُحُولِ مُزِيدَةٌ تَهْدِرُ فِيهَا ، وَمَا بِهَا قَطَمٌ
وَالطَّيْرُ (فَوْقَ الْحَبَابِ) تَحْسِبُهَا فُرْسَانٌ بُلُقٍ تَخُونُهَا اللَّجْمُ
كَأَنَّهَا (وَالرِّيَّاحُ تَضْرِبُهَا) جَيْشًا وَغَى : هَازِمٌ وَمُنْهَزِمٌ

فإذا انتقل إلى منظر البحيرة العام وما يحف بها ، لم يزد على غيره من الشعراء
إلا لفظة البدوي الغريب ، والغازة الممقوت المعيب ؛ وذلك فيما نروى لك هنا ،
واللغز عن السمك في البيت الثاني :

كَأَنَّهَا (فِي نَهَارِهَا) قَمَرٌ حَفَّ بِهِ مِنْ جَنَانِهَا ظَلَمٌ
نَاعِمَةُ الْجَسْمِ ، لَا عِظَامَ لَهَا لَهَا بَنَاتٌ ، وَمَا لَهَا رَحِمٌ
تَغْنَتِ الطَّيْرُ فِي جَوَانِهَا وَجَادَتِ الرُّوضَ حَوْلَهَا الدَّيْمُ

فَهِيَ كَمَاوِيَّةٌ مُطَوَّقَةٌ جُرِّدَ عَنْهَا غِشَاؤُهَا الْأَدَمُ

ومن يقرأ هذا الوصف فلا بد أن ينتقل ذهنه فوراً إلى قصيدة البحترى في بحيرة المتوكل ؛ فيجد فيها جمالا ورقة حضرية ، وتصويرا لبقا ، ليس للمتنبي من كل ذلك ما يسامى البحترى فيما نرى ؛ وبحسبنا أن نشير إليها عامة ، ونذكر منها هذا البيت خاصة عنوانا على محاسنها :

كأنما الفضة البيضاء (سائلة من السبانك) تجري في مجاريها

وليس في المقام سعة لروايتها كلها والموازنة بينهما ؛ فليرجع إليها من يشاء .
يحد كلاً الشاعرين قد تأثر في وصفه ببيتته وحياته ؛ وليس علينا أن نطيل القول هنا .

— ٧ —

وإذ قد ترامى بنا القول إلى ذكر المعاني الحضرية في الوصف ، فإننا نلاحظ أن المناظر البدوية كانت تطفئ على نفسه ، وتكاد تستأثر بها ، فلا تترك فيها مجالا لمناظر الحاضرة ، وكأن الآثار الأولى التي تحرك لها حسه ، وحفلت بها نفسه الشاعرة ، هي التي بقيت على مر الزمان ، منقوشة على صفحة قلبه ، فجعلت تراحم بالمناكب والمرافق كل جديد ، فلا يظفر هذا الجديد بمخيلة ترسمه رسما واضحا جليا ؛ هذا إلى الهموم التي تصطرع في قلبه ، فتقاضاه أن يقصر عليها ما عنده من تفكير وشعور . فنسمعه يهتف من أعماقه صائحا :

لَحَى اللَّهُ ذِي الدُّنْيَا مُنَاخِرًا كَبِ فَكُلُّ بَعِيدٍ إِلَهُ فِيهَا مُعَذِّبُ !

ويشكو من الدهر كثرة مساويه إليه ، وتراحم رزاياه عليه ، فيستصرخ غير سميع بأندى صوت وأعلاه :

رَمَانِي الدَّهْرُ بِالْأَرْزَاءِ حَتَّى فُؤَادِي فِي غِشَاءٍ مِنْ نِبَالٍ !

فَصِرْتُ إِذَا أَصَابَتْنِي سِهَامٌ تَكَسَّرَتِ النَّصَالُ عَلَى النَّصَالِ !

وينظر في نجوم الليل ، فلا يقول فيها ما يقول ابن المعتز ، المنعم في قصر

الخلاقة : (درر نثرن على بساط أزرق) بل لا يجوز عليها بأنها حلى على حالك
ليل ، إلا ليطل بعد ذلك في وصف طول الليل ، وليعد هذه النجوم الدرارى
أرقاما حسائية ، يحصى بها ذنوب الزمان وبلاياه :

اَقْلَبُ فِيهِ أَجْفَانِي كَأَنِّي أَعُدُّ بِهِ عَلَى الدَّهْرِ الذُّنُوبَا !

ولذلك لا يتوقع منه أن يفرغ لوصف المناظر الحضرية الجميلة ، كالبحتري
وابن المعتز ، ولا يتقلب بين جنات هذه الدنيا ، حتى يبدع في وصف الأنهار
والبساتين ، كابن خفاجة وابن حمديس ، ولا تطيب لنفسه كثيرا بجالس الأنس
والغناء . لكن يعزف مع ابن الرومي على أوتار القيان ، ويركض معه في
هذا الميدان :

تَغْنَى كَأَنَّهَا لَا تَغْنَى مِنْ سَكُونِ الْأَوْصَالِ وَهَنَى تُجِيدُ

لَا تَرَاهَا - هُنَاكَ - تَحْجِظُ عَيْنَ لَكَ مِنْهَا ، وَلَا يَدْرُ وَرِيدُ

مِنْ هَدْوٍ ، وَلَيْسَ فِيهِ انْقِطَاعٌ وَسُجُوتٌ ، وَمَا بِهِ تَبْلِيدُ

مَدٍّ فِي شَأْوِ صَوْتِهَا نَفْسٌ كَأَنَّهَا فِي ، كَأَنَّهَا عَاشِقُهَا مَدِيدُ

وَأَرْقَ الدَّلَالُ وَالْفَتْحُ مِنْهُ وَبِرَّاهُ الشَّجَا ، فَكَادَ يَبِيدُ

فَتَرَاهُ يَمُوتُ طَوْرًا وَيَحْيَا مُسْتَلَذً بِسَيْطِهِ ، وَالنَّشِيدُ

وليس هو بالذى يشرب على الورد من حمراء كالورد ، فيتابع أبا نواس ،

وينهب مع الغواة بدلوهم ، ويُسِيمُ سِرْحَ اللُّهُوِّ حَيْثُ أَسَامُوا ، ويتداوى من داء

الحمار بداء العقار ، ويستريح إلى هذه الرايح ، ويتفنن في تزيينها بالبارق الللاح :

فَتَمَشَّتْ فِي مَفَاصِلِهِمْ كَتَمَشَّى الْبَرَاءُ فِي السَّقَمِ

فَعَلَتْ فِي الْبَيْتِ إِذْ مُرِجَتْ مِثْلَ فَعَلِ الصَّبْحُ فِي الظُّلَمِ

وَأَنْتَى لَهُ كُلُّ هَذَا ، والخمر ليس من أربه كما ينادى ، ولا يهتز للأغانى فيما يقول :

أَصْخَرَةٌ أَنَا ؟ مَالِي لَا تُحَرِّ كُنِي هَذِي الْمُدَامُ ، وَلَا تِلْكَ الْآغَارِيدُ ؟

وكذلك لم يجد في دنياه صديقا يأنس إليه ، ويستريح إلى صداقته ، ولم

لقى من عنت الأيام ولوم الأنام ! فهل في قلبه بقية لم يحوها الظلام ؟ ثم إنه لم

يفكر إلا في نفسه وحقه على الدنيا، فيمر بكثير من المناظر لا يجود عليها بنظرة ولا التفاته، كما تخرج إلى الشارع . تسعى لأمر يعينك أن ينتهي إلى تمام ، فتري الأشياء ولا تراها ، فإذا سئلت عن منظر في طريقك أنكرته ، وغيرك يعرفه ويعيه ، وفارغو البال من حولك يُسبِّهون^(١) في الطريق . ويقتبون البصر فيما وراء المعارض الزجاجية ، من ثياب مطوية ومنشورة . إلى حلي براقة مصفوفة ، إلى غيرها من كل ملهبي ومنظر (أنيق لعين (الفارغ) المتوسم) ومن هنا نرى حقيقا باللوم من يلحى أبا الطيب ، وينعى عليه أنه ورد مصر وتقياً في ظلالها ، فلم يظفر منه النيل بقصيدة ، ولم تفر الأهرام منه بمقطوعة ؛ فقد كان في مصر (كما يقول) حراً يتما بين عبدان لثام :

حَصَلْتُ بِأَرْضِ مِصْرَ عَلَى عَبِيدٍ كَأَنَّ الْخُرَّ يَنْتَهُمُو يَتِيمُ
فلم يستروح نسيم الجمال في أفيائها ، ولا أحس فضل النيل على أهلها ، كما أحس ذلك أستاذنا (الشيخ عبد المطلب) رحمة الله عليه فقال :

يا نيل مصر سقيتنا ماء الحياة نميرا
لولاك ما فاح النسيم بأرض مصر عبيرا
والله لقانا بفضلك نضرة وسرورا
لا زال فيضك جاريا بين البلاد غزيرا
يكسو الأباطح سندسا من نسجه وحريرا
فتري الرياض نضيرة وتري النبات نضيرا
أنواره زهر ، تريك اللؤلؤ المشورا
وما عرف فضل بناء الأهرام ، ولا كان يعبأ بجلالها ، ولا يبالى ما تدل عليه ، حتى يقول فيها ما قال البارودي وصبري وشوقي (رحمهم الله !)

وما نظنه أجاد وصف شعب بوآن في طريقه إلى عضد الدولة بشيراز ،

(١) سهيل : مشى في الطريق جيئة وذهوبا لغير عمل (يضرب بالطة) ومن كلام عمر رضي الله عنه : «إني لا أكره أن أرى أحدا سبهلا ، لا في عمل دنيا ولا في عمل آخرة ،

إلا متحسراً على مجد العرب ، الذي غلب عليه أولئك الأعاجم ، واستأثروا بهذه الجنة من جنات الدنيا وأمثالها دونهم ، فصار العربي فيها غريباً : وجهها ، ويداء ، وكلاماً ! وتجده هذه الحسرة ظاهرة في بعض لفتاته في القصيدة النونية ، التي نروى لك صدرها هنا ، وفي تدبر هذه اللفات مقنع أى مقنع :

مَعَانِي الشَّعْبِ طَيْبًا فِي الْمَعَانِي بِمَنْزِلَةِ الرَّيِّعِ مِنَ الزَّمَانِ
(وَلَكِنَّ الْفَتَى الْعَرَبِيَّ فِيهَا غَرِيبُ الْوَجْهِ وَالْيَدِ وَاللِّسَانِ)
(مَلَاعِبُ جَنَّةٍ لَوْ سَارَ فِيهَا سُلَيْمَانٌ ، لَسَارَ بِتَرْجُمَانِ)
طَبَّتْ فُرْسَاتُنَا وَالْخَيْلَ ، حَتَّى خَشِيتُ (وَإِنْ كَرُمُنَا) مِنَ الْحِرَانِ
غَدَوْنَا تَنْفُضُ الْأَغْصَانُ فِيهِ عَلَى أَغْرَافِهَا مِثْلَ الْجُمَانِ (١)
فَسِرْتُ وَقَدْ حَجَبَتِ الشَّمْسُ عَنِّي وَجِئْتُ مِنَ الضِّيَاءِ بِمَا كَفَانِي
وَأَلْقَى الشَّرْقُ مِنْهَا فِي ثِيَابِي دَنَانِيرًا تَقَرُّ مِنَ الْبَنَانِ

ولا بد أن نقف عند هذا البيت ، وتصويره ضوء الشمس إذ يتسلل من بين الورق المتزاحم ، فيمثل الدنانير التي لا تستقر في الكف ، بل تسرع هاربة من البنان ، ونرجع إلى بيت آخر في مثل هذا المعنى ، وقد مرت لنا روايته في حرياته :

إِذَا ضَوْءُهَا لَاقَى مِنَ الطَّيْرِ فُرْجَةً تَدَوَّرَ فَوْقَ الْبَيْضِ مِثْلَ الدَّرَاهِمِ

فانظر تجده مبدعاً في كلا البيتين ؛ ولكنه تدارك في بيت الشعب ما فاتته في بيت الحرب ، من تسجيل حركة الضوء الدائبة ، لكثرة التذبذب فيما يحول دون الضوء ويحجبه ، من الورق هنا ، وریش القشاعم هناك ؛ وكأنه عاش ليستكمل هذا المعنى البديع في خريف حياته ؛ ثم هنا ملاحظة أخرى ، وهي

(١) يقصد قطرات الندى ، فهي تحكى الجمان ، وهي حبات من النفضة مستديرة شبيهة بالؤلؤ .

غرامه بذكر الدراهم والدنانير ، التي يراها الطريق إلى المجد ، والوسيلة للمحافظة عليه .

ثم نعود إلى ما نحن بسبيله ، فننقل بقية وصفه ولفقاته :

لَهَا ثَمَرٌ تُشِيرُ إِلَيْكَ مِنْهَا بِأَشْرِبَةٍ وَقَفْنَ بِلَا أَوَانٍ

فهل تجد أحسن من هذا في وصف الثمار برقة البشرة ، حتى لتشف بشرتها عما تحتها من الماء ، كما ينم عليه صافي الزجاج ؟ ثم استمع إلى صلصلة الحصباء تحت الماء الجاري ، الذي يدرجها ، ويمتزج صليلها بخبره

وَأَمْوَاهُ يَصِلُ بِهَا حَصَاهَا صَلِيلَ الْحَتَّى فِي أَيْدِي الْغَوَانِي

وفيما يأتي يظهر التهمك بهؤلاء الأعاجم ، الذين لا يستحقون السكنى حول هذه الجنة ، وفي طيات هذا الاستهزاء ، من التحسر آهات وأنات :

إِذَا غَنَى الْحَمَامُ الْوُزْقُ فِيهَا أَجَابَتْهُ أَغَانِيُ الْقِيَانِ

وَمَنْ بِالشَّعْبِ أَحْوَجُ مِنْ حَمَامٍ إِذَا غَنَى وَنَاحَ إِلَى الْبَيَانِ

وَقَدْ يَتَقَارَبُ الْوَصْفَانِ جِدًّا وَمَوْصُوفَاهُمَا مُتَبَاعِدَانِ

ومن الخير أن يضم إلى هذه الآيات ، ذلك البيت الذي يسمهم بشدة العجمة ، حتى إن سليمان لا يفهم عنهم ، ولا هم عنه يفهمون إلا بترجمان ؛ وأعجب من هذا كله أن المتنبي (وليس مثل سليمان) يفهم عن حصانه ، بل ينطقه بالشعر البليغ على لسان الحال إذ يقول :

يَقُولُ بِشَعْبِ بَوَّانٍ حِصَانِي أَعَنْ هَذَا يُسَارُ إِلَى الطَّعَانِ ؟

أَبُوكُمْ آدَمُ سَنَ الْمَعَاصِي وَعَلَّامُكُمْ مُفَارَقَةُ الْجَنَانِ !

وكما يشير إلى حسرة اللاذعة وألمه الدفين بيت (ولكن ..) يحلوها هنا واضحة على لسان الحصان . (أعن هذا ؟) ، (سن المعاصي) ، (مفارقة الجنان) إن هذه الكلمات لتفيض بالآنين ، وتُصعد لهيب الزفرات ، وتموج بمتوقد اللوعات !!

على أنه في هذه القصيدة يتمنى أن لو كانت هذه المغاني (هي دمشق) إذن
لكان له فيها شأن غير هذا الشأن، فدمشق مستقر العرب الأجداد، ومنازل
الأسخياء الأجواد:

وَلَوْ كَانَتْ دِمَشْقُ ، ثَنَى عَنَانِي لَيِّقُ الثُّرْدِ صِدِّي الْجِفَانِ (١)
يَلْتَنَجُّوْجِي مَا رُفِعَتْ لِضَيْفٍ بِهِ النَّيْرَانُ ، نَدَى الدُّخَانِ (٢)
فهو يستكثر هذا النعيم على أبناء العجمة، ويود لو انتقل ما عندهم من الخير
لأبطال العروبة.

ولقد نراه مع هذا قد جاوز في هذه النونية حدود الإبداع والإتيقان، وبث
كل ما في نفسه من هموم وأشجان؛ فوق أيا ما توفيق، وأبدع ما شاء له الإبداع؛
فلو صفا له الجو، ونال ما يرجو من المطالب، وعاش في الحواضر عيش الحضري
المهنا النفس، الناعم الحال، الهادي البال - لرجونا أن تجلو شاعريته محاسن
الحضر، ومنظر السماء والسحاب والمطر، والبساتين النواضر، غب الغمام
المواطر؛ ولتوقعنا أن يجود على هذه النواحي التي أهملها بأوصاف تشنف الآذان،
وتزري بنغمات الأوتار والعيدان، وتفوق ألحان الأطيوار، في نسائم الأسحار.
فلقد فاتنا من سحر أبي الطيب وإبداعه في فنه خير كثير. إنه نزل لبنان وعاش
فيها زمنا، ولكن لم يكن كالمرحوم شوقي بك مصطافا للذة والمتاع، والاحتفال
بحسن المناظر، واهتبال النهضة لاجتلاب السرور، بين إخوان له مكرمين،
وعلى راحة نفسه حريصين، فلذلك لم يكن يهش لها حتى يقول مثل شوقي في
قصيدته الثانية مثلا، ومطلعها:

السحر من سود العيون لقيته والبالى بلحظهن سقيته

(١) ليق الثرد: حسن الثريد

(٢) الينجوج عود يتخير به، وكذلك الند، ومعنى النسب إليهما: أنه يوقد النار
للضيقات بذاك العود، ودخانها يصاعد رائحة الند.

إذ يقول منها:

لُبْنَانُ وَالْخُلْدُ اخْتِرَاعُ اللَّهِ ، لم يُوسِّمَ بِأَزِينٍ مِنْهُمَا مَلَكُوتَهُ
وَكَانَ أَيَّامَ الشَّبَابِ رَبُّوعَهُ وَكَانَ أَحْلَامُ الْكَعَابِ يَبُوتَهُ
وَكَانَ رِيْعَانُ الصَّبَا رِيْحَانَهُ سر السرور يجوده ويقوته (١)
وَكَانَ أَثْدَاءُ الْكَوَاعِبِ تَبْنَهُ وَكَانَ أَقْرَاطُ الْوَلَائِدِ تَوْتَهُ

وهذا شعر ينم على شعور بالنعمة عميق، وحب للطبيعة الجميلة شديد، ونفس فرغت (ولو إلى حين) من هموم الحياة إلى اللذة والمتاع؛ بل أكاد أقسم: تالله ما هذا شعرا؛ إن هو إلا مداعبة لطفلة مضحاك لعوب، وتدلِيل لطفل غرير بسام، ومناغاة عذبة، ما أحلى وقعها في الأذان، وما أخف ألحانها على القلوب والنفوس. أما المتنبي فقد نزل لبنان نزول الرعيان، وقطاع الطريق ورجال العصابات في ذلك الزمان؛ وإنه ليحدثنا عن هذا في قصيدة له يمدح بها عضد الدولة، ويستعيد ذكريات لبْنان وقد بعد عهده بها، والذكريات (جميلة أو غير جميلة) عزيزة على النفس، حبيبة إلى القلب، كأنها أفلاذ الأكباد:

أَحِبُّ رَحْمَةً إِلَى خُنَاصِرَةٍ وَكُلُّ نَفْسٍ تُحِبُّ حَيَاَهَا
حَيْثُ التَّقَى خَذَهَا وَتَفَاحُ لُبْنَانٍ وَتَغَرَّى عَلَى حُمَيَاَهَا
وَصِفْتُ فِيهَا مَصِيفَ بَادِيَةٍ شَتَوْتُ بِالصَّحْحَصَانِ مَشْتَاَهَا
إِنْ أَعْشَبَتْ رَوْضَةً رَعَيْنَاَهَا أَوْ ذَكِرَتْ حِلَّةً غَزَوْنَاَهَا
أَوْ عَرَضَتْ عَانَةً مُقَرَّعَةً صَدْنَا بِأَخْرَى الْجِيَادِ أَوْلَاَهَا (٢)
أَوْ عَبَرَتْ هَجْمَةً بِنَا تُرِكَتْ تَكُوسُ بَيْنَ الشُّرُوبِ عَقْرَاَهَا (٣)

(١) يجوده: يطره من جاده، مثل جادك الغيث... ويقوته: يطعمه.

(٢) العانة: القطيع من حمر الوحش - مقرعة: مشرقة كالقزع، وهي قطع السحاب.

(٣) الهجمة من الابل: ما بين السبعين إلى المائة - كاس البعير يكوس: مشى على

وَالْخَيْلُ مَطْرُودَةٌ وَطَارِدَةٌ تَجْرُ طُولِي الْقَنَا وَقُصْرَاهَا^(١)

فكيف نطلب إليه (بعد ذلك كله) أن يحول بصره عن البادية وخشوتها ، إلى الحياة الناعمة اللينة ؛ ليجلو علينا مباهجها ، ويبرز لنا محاسنها تترامى في حلة من الشعر مزدانة ، وتختال في معرض من التصوير يأسر الألباب ؟ أرأيت نجد يا يصف غابات الهند ؟ أم هل سمعت قطبيا يتغزل في شمس خط الاستواء ، وألوان الطيف منها عند مساقط الماء ؟ ... لا يكلف الله نفسا إلا وسعها .

— ٨ —

وإن تعجب فعجب أن المتنبي (على براعته) قد يهرب من الوصف حينما يطلب إليه ؛ ولعلك تحسب هذه الدعوى منا جرأةً وتجنبا عليه ؛ ولكن لا تعجل ولا تذهب مع بعض الظنون ، فقد نسوق إليك البرهان ، ونحاول تعليل ذلك بدواعي الاطمئنان :

(١) إن كافورا بنى دارا ، ورغب إلى أبي الطيب أن يذكرها في شعره ، والذي أستطيع فهمه في مثل هذا المقام أنه يطلب وصف الدار بذكره محاسنها ، أما التهنئة بها ، والدعاء للباني بطول البقاء والتمتع بها ، وإنشاء أمثالها ، فكل ذلك يحجى عرضا في حواشي الغرض ، والوصف هنا هو عمود الكلام — . فماذا فعل أبو الطيب ؟ إنه زاغ من الوصف ، إلى وربك ؛ ولا وحرمة الأدب ما سخت شاعريته لها عن شطر واحد ، بله البيت والآيات !! ولكنه وقف يتهم بكافور ويضحك منه ومن سواد لونه ، بذلك النوع الحديث من المديح ، في قصيدة همزية مطلعها :

إِنَّمَا التَّهْنِئَاتُ لِلْأَكْفَاءِ وَلِمَنْ يَدْنِي مِنَ الْبُعْدَاءِ
وَأَنَا مِنْكَ ، لَا يَهْنِي عَضْوُ بِالْمَسَرَّاتِ سَائِرِ الْأَعْضَاءِ

(ب) وقد مد نهر حلب حتى أحاط بدار سيف الدولة ، فامتد لسان

ثلاث والرابعة معقورة - الشروب : جمع شرب : جمع شارب ، أى شارب الخمر -
العقري جمع عقير ، مثل قتلى وقتيل .

(١) الطولى والقصرى : أنثى أطول وأقصر

صاحبنا بقطرة واحدة في وصف هذا المنظر ، بل انطلق . يرتجز ارتجالاً ، في نفس ليس بالقصير ، واتخذ المدّة تُكأةً ومعتمداً ، كي يقول في مدح البحر الأكبر الذي يزرى بالبحار ؛ وصار يظن الماء ، يزاحمه في طلب العطاء ؛ أو يريد مباراة الممدوح ... الخ

حَجَبَ ذَا الْبَحْرِ بِحَارٍ دُونَهُ يَذُمُّهَا النَّاسُ وَيَحْمَدُونَهُ
يَا مَاءَ هَلْ حَسَدْتَنَا مَعِينَهُ ؟ أَمْ اشْتَهَيْتَ أَنْ تُرَى قَرِينَهُ ؟
(ح) ونثر عضد الدولة في مجلسه ورداً ، وأبو الطيب حاضر ، فبدأ شعرا في المدح وأتمه بالمدح ، ولم يعرض للورد إلا بيت واحد ، وهو على ذلك غث بارد لا روح فيه :

كَأَنَّمَا مَائِجُ الْهَوَاءِ بِهِ بَحْرٌ حَوَى مِثْلَ مَائِهِ عَنَمَا
(د) وأحضر له أبو العشائر جوشنا (درعا) وقال : كيف تراه ؟ والمراد بالطبع أن يصف ، فارتجل بيتين كأنهما ليسا من شعر المتنبي ، يقول فيهما : إن من يلبسه يأمن على نفسه بين الصفوف ، وينصح لأبي العشائر أن يتركه ، فإنه من قوم تغنى شجاعتهم وسلاحهم عن الدروع .

فاذا عرض للوصف في مثل هذه الأحوال ، كان فاترا لا تماسك به ولا غناء
(١) أحضره أبو الفضل بن العميد بجمرة محشوة بالنرجس والآس ، والدخان يخرج من خلال ذلك ، فقال فيها :

أَحَبُّ أَمْرٍ حَبَّتِ الْأَنْفُسُ وَأَطْيَبُ مَا شَمَّهُ مَعْطِيسُ
وَنَشَرُّ مِنَ النَّدِّ لَكِنَّهُ مَجَامِرُهُ الْآسُ وَالنَّرْجِسُ
وَلَسْنَا نَرَى لَهَا هَاجَهُ فَهَلْ هَاجَهُ عِزُّكَ الْأَقْسُ ؟
وَإِنَّ الْفِتَامَ الَّتِي حَوَلَهُ لَتَحْسُدُ أَرْجُلَهَا الْأَرُوسُ

الفتام : الجماعة ونراه هنامس الموصوف مسا خفيفا ، وحفه بالمدح من بين يديه ومن خلفه ، والمبالغة السخيفة ، فقال (كما في الشرح) إن الروس تحسد الأرجل لقيامها في خدمة المدوح .

(ب) وناولہ محمد بن طغج سیفا ؛ فأشار الشاعر به إلى بعض الحاضرين قائلا :
أَرَى مُرْهَفًا ، مُدْهَشَ الصَّيْقَلِينَ وَبَابَةَ كُلِّ غُلَامٍ عَتَا (١)
أَتَأْذَنُ لِي (وَلَكَ السَّابِقَاتُ) أَجْرُهُ لَكَ فِي ذَا الْفَتَى ؟
(اطلع يا قاتل !)

ولأنك لتراه في أكثر ما سبق غير مخلص لفنه من الوصف ، فلا يرضى الناحية الفنية بقدر ما ينبغي رضا بمدوحه ؛ ويتخذ الحادث سبلا لإرضاء نزعتهم إلى المدح ورغبتهم فيه ، ولعله كان يعرف فيهم هذه الرغبة ، فيضحي بالفن الخالص في سبيل تملقهم ؛ وقد تحيرت في تفسير هذه الظاهرة ، حتى هداني أبو الطيب نفسه إلى هذا التعليل ، فإنه حضر عند بدر بن عمار وهو على الشراب ، والفاكهة حوله ، فقال فيه مدحا جاء في تضاعيفه :

بَابِي رِيحُكَ ، لَا نَرْجِسُنَا ذَا وَأَحَادِيثُكَ ، لَا هَذَا الشَّرَابُ !
أما الغريب حقا فهو أن يطلب إليه سيف الدولة وصف حصان لكي يهديه إليه ، فلا ينشط للوصف ، ولا يجيء إلا بثلاثة أبيات فائية : أولها مدح ، وفي ثانيها إجمال لوصف الحصان بلفظ (مطهم) والثالث تفويض الأمر إلى الأمير فيما يختار مع شيء من المديح .

- ٩ -

والظاهر أن المتنبي كان متكبرا واثقا بنفسه ، فلا يهتز لمثل هذه الأمور ؛ فقد أحضر له بدر بن عمار (بمشورة عدوه الأعور ابن كروّس) لعبة في مجلسه ليختبر بداهته وسرعة خاطره ؛ وهي ذات شعر ، وفي يدها طاقة ريحان ، وتدور

على رجل واحدة، فارتجل فيها ثلاثة أبيات من بحر، ثم ثلاثة من بحر آخر،
يغلب على الجميع المدح والوصف المعنوي، وقد كان فطن للاختبار، فسأل بدرا
في ذلك، فقال: أردت أن أنفي الظنة عن أدبك، فقال يبتين نروى ثانيهما الذي
يفيض ثقة بالنفس:

إِنِّي أَنَا الذَّهَبُ الْمَعْرُوفُ مُخْتَبَرُهُ يَزِيدُ فِي السَّبْكِ لِلدِّينَارِ دِينَارًا 11

وهذا يذكرني موقف ابن حمديس الشاعر من ابن عباد الملك: دخل عنده
لأول مرة فأجلسه، وأمره أن ينظر من نافذة وراه، فرأى نارا مشبوبة وراه
طاقين مفتوحين، وقد جعل الموكل بها يقفل كلا من الطاقين، ثم يفتحه على التبادل،
ثم ترك أحدهما مفتوحا تترامى منه النار، والآخر مقفلا يمنع ضوءها، فقال
ابن عباد: أجز

انظرهما في الظلام قد نجما فأجاب: كإرنا في الدُّجَّةِ الْأَسَدُ
فقال:

يفتح عينه ثم يقفلها (١) : فعل امرى في جفونه رمد
فقال:

فأبزه الدهر نوراً واحدة : وهل نجما من صروفه أحد؟

فهل لنا أن نفضل ابن حمديس على المتنبي بسرعة البديهة والاجادة في
الوصف بديها؟ إن موقف ابن حمديس يدعو حقا إلى الإعجاب، يجيب بسرعة
على وزن لغيره لا خيار له فيه، والمتنبي في مثل موقفه مطلق حر الاختيار، ويتبادل
عن الوصف، ويستن في ميدان المديح 11

لكن لا يفوتنا أن الشاعر الصقلي ورد ساحة ملك شاعر، راجيا الحظوة
عنده، ولا وسيلة له ولا شفيح يكشف عن مكاتته للملك، وهو بعد لا يعرفه،

(١) يريد يقفلها - والشيطان إذا اصطحبا وقام كل منهما مقام صاحبه، جرى عليهما
كثيراً ما يجري على الواحد. قال الشاعر:

لمن زحلوة زل بها العينان تنهل؟

راجع تنبيه البكري على أمالي القالي ص ٣٩ طبع دار الكتب المصرية

فكان هذا داعية الإبتقان ، أما أبو الطيب فكانما يرى مختبريه أطفالا ، وبحسب كلامهم نقيق ضفادع ، فلا يأبه لهم ولا يبالهم . وهو بعد مولع بالحرب وأسباب المجد ، فلا يصرف همه إلى مثل هذه الصغائر ، التي يراها لونا من العيب ، وضربا من فضول العقل واللسان . رأى في يد أبي العشائر بطيخة سوداء حولها قشر من الخيزران ، والظاهر أنها نوع من اللُّعب التي كانت تعرض له في مجالسه ، فقال :

مَا أَنَا وَالْخَمْرَ وَبِطِيخَةٍ سَوْدَاءٍ فِي قَشْرِ مِنَ الْخَيْرُ رَانَ ؟
يَشْعَلْنِي عَنْهَا وَعَنْ غَيْرِهَا تَوَطَّيْنِي النَّفْسَ لِيَوْمِ الطَّعْمَانِ !

ودخل عند أبي العشائر أيضا ، فوجد بين يديه من ينشده قصيدة وصف لبركة في داره ، فأنف لأبي العشائر أن يلقى السمع لمثل هذا الهراء ؛ وأبدى رأيه جليا فيما يحسن فيه الكلام ، وما يليق به الترك والإيهام ؛ فاستمع لما ينشد مرتجلا :

لَئِنْ كَانَ - أَحْسَنَ فِي وَصْفِهَا لَقَدْ تَرَكَ الْحُسْنَ فِي الْوَصْفِ لَكَ
لِأَنَّكَ بَحْرٌ ، وَإِنَّ الْبَحَارَ لَتَأْنَفُ مِنْ مَدْحِ هَذِي الْبَرَكِ !
وإن هذا وحده ليفسر لنا إعراضه عن الوصف إلى المدح في أكثر الأحوال .

- ١٠ -

وقد آن لنا أن نراجع بعض لفتاته في الوصف ، وإنها لكثيرة في شعره بجميع ضروبه ، وقد لاحظنا أن هذا الضرب لا يخلو منها ؛ وقد مر بك في صدر المقال (عند وصف الحصان) أنه يشكو قلة الأصدقاء المخلصين الأوفياء (وما الخيل إلا كالصديق قليلة) ، ويرشد بعد ذلك إلى الحذر من الاغترار بالظواهر ، ويوصيك بالتغلغل وراءها . لتدرك مبلغ صدق عنوانها على باطنها (إذالم تشاهد ...) وكأنه يضرب ذلك (في الخيل) مثلا لحكم عام تجعله ميزانك في كل الأمور .

وقد رأيت كثيرا من هذه اللفقات في وصف شعب بوان ، وعرضنا ثم ليان مصدرها وموردتها ، أما الذي مر في وصف الأوعال ، والضحك والإضحاك

من لحامها ، فلعله يقصد به إلى قوم بأعيانهم ، قد اتخذوا مظاهر التقوى والصلاح جنة لهم يستدفعون بها انتقاد الناس ، ويظهر أنه كان يطلع على خائنة منهم ، فليس هو بالذي يغره الغلاف ، فتخدعه زينته عن استبطان صحائف الكتاب ، والتفتيش عما وراء السطور والكلمات ، وأكبر الظن أنه يريد بعض من يدعون للعلوية ، وليسوا منها ولا قلامه ظفر ، لا عملا ولا نسا ولا خلقا ، يضاف إلى هذا التفاته إلى ذيل الكلب في أرجوزة الطرد : (يَخْطُ فِي الْأَرْضِ حِسَابَ الْجُمْلِ) والذين يدعون العلوية يزعمون أن عليا (كرم الله وجهه) كان عالما بكل الحوادث المنتظر وقوعها ، وأودع علمه ذلك (كتاب الجفر) الذي يحوى عبارات رمزية ، لا تلقى إليك بأسرارها ، حتى تعالجها علاج الرموز ، بوضع الأرقام والأعداد موضع الحروف والكلمات ، ثم تستشف ما وراءها من تواريخ ، ووقائع ، وأعلام أشخاص ، وأسماء أماكن وبلدان . ويصطنعون حساب الجمل لمعرفة تلك الأمور الغيبية من صعود ونحوس ، وإقبال وإدبار ؛ ولا شك أن المتنبي كان يتحرق على هؤلاء الأدعياء غيظا ، ولعلمهم هم الواترون ، وهو الموتور ألا ترى إلى أوضح التفاته في وصف بحيرة طبرية :

يَشِينُهَا جَرْمُهَا عَلَى بَلَدٍ بِشَيْنَةِ الْأَدْعِيَاءِ وَالْقَزَمِ

وأوضح من هذا قوله في موطن آخر (يقصد طبرية)

وَفَارَقْتُ شَرَّ الْأَرْضِ أَهْلًا وَتُرْبَةً بِهَا عَلَوِيٌّ (جَدُّهُ غَيْرُ هَاشِمٍ)

ويقول في قصيدة يمدح بها طاهر بن الحسين بن طاهر العلوي :

إِذَا عَلَوِيٌّ لَمْ يَكُنْ مِثْلَ طَاهِرٍ فَمَا هُوَ إِلَّا حُجَّةٌ لِلنَّوَاصِبِ

- ١١ -

ولأبي الطيب (بعد هذا كله) أوصاف تتصل بالنزل . وقد أبدع في أكثرها ، وجاء فيها بفتنة القلوب والاسماع ، وإنا لنثبت بعضها مستغنين بالطل عن الوبل . قال في خصر جميل يحذب العيون من حوله ، فتثبت فيه ولا تتحول عنه كأنها عليه نطاق :

وَحَصْرُ تَثْبُتِ الْأَبْصَارُ فِيهِ كَانَ عَلَيْهِ مِنْ حَدَقِ نِطَاقًا

وينظر إلى غانية يزين التثني والبخترية مشيتها فيقول :

كَأَنَّمَا قَدَّهَا إِذَا انْفَتَلَتْ سَكْرَانُ مِنْ خَمَرٍ طَرَفَهَا تَمَلُّ

وكان ابن زيدون قد لمح هذا البيت حينما قال فأحسن في السبك :

ما للدمام تُديرها عيناك فيميل في سكر الصبا عطفاك !؟

ويقول في حسن التبخر مع نعومة الجسم وجمال الثغور :

حِسَانُ التَّنْثِي ، يَنْقُشُ الْوَشْيُ مِثْلَهُ (إِذَا مَسَّنَ) فِي أَجْسَامِهِنَّ النَّوَاعِمِ

وَيَسْمُنَ عَنْ دُرٍّ تَقْلُذْنَ مِثْلَهُ كَانَ التَّرَاقِي زِيْنَتَ بِالْمَبَاسِمِ (١)

انظر كيف يترك الوشي شبيه صورته في تلك الأجسام الناعمة ؟ وله في

موقف وداع :

وَجَلَا الْوَدَاعَ مِنَ الْحَبِيبِ مُحَاسِنًا حَسَنُ الْعَزَاءِ (وَقَدْ جُلِينِ) قَبِيحِ

فَيْدُ مُسَلِّمَةٍ ، وَطَرَفُ شَاخِصٍ وَحَشَا يَذُوبُ ، وَمَدْمَعُ مَسْفُوحٍ !!

وفي موقف مثله أيضا :

حُشَاشَةُ نَفْسٍ وَدَّعَتْ يَوْمَ وَدَّعُوا فَلَمْ أَذِرْ : أَيْ الظَّاعِنِينَ أَشْبَعُ ؟

أَشَارُوا بِتَسْلِيمٍ ، فَجَدْنَا بِأَنْفُسٍ تَسِيلُ مِنَ الْأَمَاقِ ، وَالسَّمُّ أَدْمَعُ (٢)

— ١٢ —

ولقد أتى بالبارع الباهر في الأوصاف المعنوية ، وعواطف النفوس وما

يصدر عنها ؛ فمن ذلك وصفه لموقف سيف الدولة في الحرب : هادئا والموت

(١) التراقي : جمع ترقوة وهي العظم الذي بين ثغرة النحر والعاتق في أعلى الصدر

ومنه قوله تعالى : «حتى إذا بلغت التراقي» .

(٢) السم : لغة في الاسم ، وميمه مخففة ؛ والسين مثلثة

يتخطف الأرواح من حوله، باسمها والاباطال يمرون به عبس الوجوه؛ وهو متعالم مشهور. ومنه أثر الوهم في النفوس، كما يصور هرب الدُمُسْتَقْ :

وَلَكِنَّهُ وَلَّى ، وَلِلطَّمَنِ سَوْرَةٌ إِذَا ذَكَرَتْهَا نَفْسُهُ لَمَسَ الْجَنَبَا

وكذلك هرب بني تميم، وضيق الأرض بهم، أمام جيش سعيد بن عبد الله ابن الحسن الكلابي، فالوهم يخلق لهم أشباحا، فينفخ فيها فتصير رجالا :

وَصَافَتْ الْأَرْضُ ، حَتَّى كَانَ هَارِبُهُمْ إِذَا رَأَى غَيْرَ شَيْءٍ ظَنَّهُ رَجُلًا

وما أجمل وصفه للحب، إذا تردد بين خوف القطيعة ورجاء الوصال ! :

وَأَخْلَى الْهَوَى : مَا شَكَ فِي الْوَصْلِ رَبُّهُ

وَفِي الْهَجْرِ : فَهَوَ - الدَّهْرَ - يَرْجُو وَيَتَّقِي

ويصف بعض بمدوحه بالوقار مع خفة الروح، ويعجب من اجتماع هاتين الخلتين عجباً ينبهك إلى جمال البيت :

يَرُوعُ رَكَاةً ، وَيَذُوبُ ظَرْفًا فَمَا نَذَرِي : أَشَيْخٌ أَمْ غُلَامٌ ؟ !

ومثله في الجمع بين وصفين متباعدين، جمعه بين الحياء الخجول والشجاعة المتجهمة :

نَصَرَعُهُمْ بِأَعْيُنِنَا حَيَاءً وَتَذَبُّوْا عَنْ وُجُوهِهِمُ السَّهَامُ

.....

حَيُّونَ ، إِلَّا أَنَّهُمْ فِي نِزَالِهِمْ أَقْلُ حَيَاءٍ مِنْ شِفَارِ الصَّوَارِمِ

وفي خوذ بمنعة بصوأة أهلها وحمايتهم لها يقول :

بَيْضَاءُ ، تُطْمِعُ فِيمَا تَحْتِ ، حُلَّتِهَا وَعَزَّ ذَلِكَ مَطْلُوبًا إِذَا طُلِبَا !

كَأَنَّهَا الشَّمْسُ : يُعْنِي كَفَ قَابِضِهِ شُعَاعُهَا ، وَيَرَاهُ الطَّرْفُ مُقْتَرِبَا

وفي أخرى مثلها :

فِيهِنَّ مَنْ تَقَطَّرُ السُّيُوفُ دَمًا إِذَا لِسَانُ الْمُحِبِّ سَمَّاهَا
ووصفه الحمى التي أصابته بمصر أبلغ تصوير في أبدع طراز :

وَزَائِرَتِي كَأَنَّ بِهَا حَيَاءَ فَلَيْسَ تَزُورُ إِلَّا فِي الظَّلَامِ
بَذَلْتُ لَهَا الْمَطَارِفَ وَالْحَشَايَا فَعَاقَبَتْهَا ، وَبَاتَتْ فِي عِظَامِي
يَضِيقُ الْجِلْدُ عَنْ جِسْمِي وَعَنْهَا فَتُوسِعُهُ بِأَنْوَاعِ السَّقَامِ
إِذَا مَا فَارَقْتَنِي غَسَّلْتَنِي كَأَنَّا عَاكِفَانِ عَلَى حَرَامِ
كَأَنَّ الصُّبْحَ يَطْرُدُهَا فَتَجْرِي مَدَامِعُهَا بِأَرْبَعَةِ سِجَامِ
أَرَأَيْتَ وَقْتُهَا مِنْ غَيْرِ شَوْقٍ مُرَاقِبَةَ الْمَشُوقِ الْمُسْتَهَامِ
وَيَصْدُقُ وَغْدُهَا ؛ وَالصَّدْقُ شَرٌّ إِذَا الْقَاكَ فِي الْكُرْبِ الْعِظَامِ

وهذه القطعة الفنية غنية بنفسها عن التعليق ، تسبق معانيها إلى الأذهان .
الفاظها إلى الأذان . ولكن انظر إلى إبرازه الصورة المعنوية ، بحيث ترى
ملبوسة محسوسة . ألم يخدعك أبو الطيب : فتصورت عادة حسناء ، تسعى إليه
تزوره على استحياء ، فتدفع لذلك جلباب الظلماء ، خوفا وخفية من أعين
الرقباء ؛ حتى إذا أقبلت استقبلها مرحبا كالمشغوف بها ، وقدّم إليها الفرش
والغطاء ؛ ولا تزال به متخدعا حتى ينهك إلى الحقيقة من طرف خفي ،
إذا أبت الزائرة المطارف والحشايا ، وباتت منه في العظام . وحينئذ فقط تدرك
الحديعة ، وتعرف الحقيقة ، وتعلم ما كان من قبل يريد .

وما أنس من شيء لا أنس وصفه لتيه الأسد وثقته بنفسه ، إذ يمشي على
الأرض متمهلا ، كأنه يريد أن يشعرها بمشييه فوقها ، لتأخذ حذرها ، فلا يأخذها
ميند ولا اضطراب :

يَطَأُ الثَّرَى، مُتَرَفِّقًا، مِنْ تِيهِهِ فَيَكَاَنُهُ آسِي يَحْسُ عَلِيلًا
فما قرأت هذا البيت، أو سمعته، أو تدبرته، إلا ذكرت منظرًا شبيها به،
لنمر بإحدى غاب الهند، تراءت صورته على سينية الخيالة، فشاهدته يمشي هادئًا
مترفقا، يمد قوائمه إلى الأمام، وينقل الخطو بانتظام، كأنما يوقع الخطا على
أوتار العطرسة في نفسه والكبرياء، وعيناه تجول حوله، غاية في الهدوء ونهاية
في السكون.

هذا إلى وصفه الزمان وتقلبات الأيام، بما لا يتفق مثله لكثير من الشعراء.

— ١٣ —

وبعد: فإني قدرت لهذا الموضوع (حين استقبلته) كراسة أو ما يدانيها،
فلما أقبلت أجيل الرأي فيه، تشعب أمامي وتباعدت نواحيه، فما زلت به أروض
نوافره، وأجمع متفرقه، حتى استقاد وتدانت أطرافه، وفي نفسي أنى ما شفيت
منه نفسي، فقد كنت آمل أن أجلو منزلة المتنبي في الوصف بين الشعراء الوصافين،
بطريقة يسندها البرهان، ويطمئن لها العقل والوجدان. ولكنني رأيت ذلك
محتاجا إلى تأليف كتاب ضخم، يتناول جل وصف المتنبي، وكثيرا من وصف
سابقه ولاحقه: عرضا وتحليلا، ونقدا وموازنة وتحليلا، حتى نتبين مبلغ
تأثيره السابقين، ومقدار تأثيره في اللاحقين، فهل إلى ذلك من سبيل؟ إن قلبي
يحدثني بمحاولة هذا الكتاب، فيما يستقبل من الزمان، فعسى الله أن يصرف
الشواغل، ويرزقني التوفيق فيما أحاول؛ فإنه (تعالى) هو الموفق والمستعان؟

المتنولى فاسم